أسنان جديدة

قصة بقلم محمد محمود

انحنى سليم على الارض الندية يحفرها بأظافره ويديه ، بينما كانت دقات قلبه تتلاحق سريعة متتابعة . وما ان وارى الصرة الصغيرة في الارض حتى انهال عليها بالتراب فغمرها . ثم ربط خرقة على ساق شجيرة ذرة ليهتدي الى مكان الصرة في حقل الذرة الواسع . أخذ نفسا عميقا ، ثم خرج حبوا الى طرف الحقل ، وقبل أن يرفع رأسه ويعتدل ، أنصت جيدا وأرهف السمع ، فلم يسمع غير أصوات الضفادع وهي تنق آمنة مطمئنة عند الشاطيء .

تسلل الى النهر ، فقد أعطشه الحر ، والاختباء طويلا في حقل الذرة ، فجعل يعب الماء عبا ، ثم غسل وجهه ويديه ، وجلس قليلا ليتفحص مكان اختفائه من جديد . فبدا له ـ وهو في عجلة من أمره ـ أنه لم يحسن اختيار المكان المناسب من الحقل ليخفي فيه الصرة . فان أقل الناس فهما سيدرك مخبأه بدون تردد ، وسيقول فورا : انه في طرف الحقل الغربي المقابل للنهر ، فثمة يستطيع الاختفاء ، ويستطيع في الوقت نفسه أن يرد الماء اذا عطش .

ركبه الخوف من جديد ، فأخذ يحبو الى الحقل ليخرج الصرة ويبدل مكانها ، وعزم أن يدفنها هذه المرة في الطرف الاخر من الحقل ، ثم يختبيء بعيدا عنها ، وفي هذه الحال لن يستطيعوا العثور عليها مطلقا .

أخرج الصرة بسرعة ، واندفع يزحف على بطنه ضمن حقل الذرة الى الطرف الشرقي منه وبعد أن وارى الصرة مرة اخرى ، لم ينس أن يربط الخرقة على ساق الشجيرة ليهتدي الى المكان ، وعاود زحفه مبتعدا ، قاصدا مكانا قريبا من الشاطيء .

تمدد على الارض ملصقا ظهره بها ، ثم أغمض عينيه ، فقد كان حر الشمس يصهر كل شيء . حتى ان العصافير المولعة بالهجوم على حقول الذرة قد كفت عن زقزقتها ، اللهم الا بعض الجنادب فقد كانت تصر مؤالفة مع الضفادع لحنا صيفيا منسجما . وأما صوت جريان النهر فقد كان يأتي رتيبا ، هادئا ، كسولا ، يغري المرء بنومة طويلة فوق طوف خشبي يمضي مع النهر الى ما لا نهاية ..

ـ متى يأتون ..

سخر من نفسه لانها تسأل مثل هذا السؤال ، أيريد حقا مجيئهم؟؟ ولماذا يستعجل مجيئهم ما داموا سيبحثون عنه في كل مكان .

ومن المؤكد أنهم سيقصدون تلك الحمقاء امرأته ، فهم يعرفون كيف يستدرجونها للكلام عن مخبئه وستضيع وصاياه وتحذيراته سدى وبدون جدوى .

رأى أنه لو ترك حقل الذرة ، فاختبأ في حقل القمح المجاورلاستطاع بذلك ان يبتعد عن منطقة الخطر قليلا ، ولكن تذكر قصر سوق القمح، وشدة حرارتها ليبسها ، ثم بعده عن الماء ، مما قد يسبب له مضايقات كثيرة . فآثر أن يظل في مكانه ما دام لم يتهدده خطر جدي حتى هذه اللحظة .

أخرج لفافة ، ثم بحث في جيبه عن الثقاب، وبسرعة البرق اخترقت رأسه فكرة حظر التدخين في حقل الذرة الناضج ، اذ تكفي شرارة واحدة لان تحيل المكان كله الى جحيم . كانت الشجيرات تتعانق فوقه برؤوسها المثقلة بالحبوب الذهبية ، فأغمض عينيه مرة أخرى، وأسند رأسه الى الارض ، فأخذ يشتم رائحتها بوضوح ، وغدت رائحتها اكثر نفاذا كلما ازداد جوعا ، فجذب اليه شجيرة ، وتناول عرناس ذرة وأخذ يلوك حباته كأنه أرنب بري. أراد أن يقاوم النوم الذي كان يوحي بسه اليه صوت جريان النهر الرتيب ، فجلس خوفا من ان يغفو في تمدده ذاك ، فيقع فريسة سهلة بين أيدي اولئك الشياطين . ومع ذلك فقد هم بالوقوف ، والسير الى القرية ، فقد مل الاختباء ، وحطم الخوف أعصابه ، ورأى أن لا منجى يخلصه من يد الوكيل « دياب ».

ولعن في سره الساعة التي رأى بها ذلك « البائع المتجول » فقد أحال حياته جحيما ، كانت تلك الساعة نحسا بلا شك ، ليته اهتم في تلك الساعة بمراياه الملونة الجميلة ، وبالودع أو بعلب التدخير الفضية الجميلة ، ولكنه الشيطان هو الذي جعله يتأمل بدهشة أسنان البائع المتجول ، فقد كانت ناصعة ، لؤلؤية ، منتظمة ، على نسق مذهل. وتعجب من قدرة الله الخلاق الذي حفظ لهذا الرجل الذي قارب الخمسين أسنانه بهذا الجمال والبياض والمتانة . ولكنه تذكر أن لاهل المدن عجائب تذهل ، فلعله يستعمل دواء غالي الثمن يحفظ الاسنان ويمنع تساقطها . أراد أن يسأله عن هذا الدواء العجيب ولكن الخجل أربكه ، فسيسخر منه البائع بدون ريب ، فما نفع الدواء لرجل لم يبق في فمه سن ما ، لم يبق الا لسان طليق ، يجول غير مصطدم الا بلثة حمراء كلثات الاطفال الرضع .

وما أشد دهشته عندما علم ان هذه الاسنان مركبة تركيبا اصطناعيا ، ولم يصدق كلام الرجل حتى خلعها ووضع الاسنان الجميلة الناصعة البياض على راحة كفه .

تسللت فكرة تركيب اسنان مثل اسنان البائع المتجول الى رأسه كما يتسلل الفأر الى جحر عميق في الارض . ونسجت احلامه فورا سعادته المقبلة بأسنانه الجديدة . سيتخلص اولا من اللثغة ومن عيوب الكلام ، ثم يطحن بها بعد ذلك ما حرم منه من طيب المأكولات . وسيدهش بها جميع اهل القرية ، اذ سيكون الرجل الوحيد الذي له هذه الاسنان الجميلة مع تقدمه في العمر . ولكن تحقق الحلم كان يصطدم بعقبة : كيف يذهب الى المدينة الكبيرة ، وحده ، بدون مرشد ، ولقد ضاع بها منذ سنوات عندما ذهب اليها لاداء شهادة في المحكمة « الكبيرة » هناك . والاكثر من ذلك سوءا ، والاشد نكدا ، هو الحصول على نفقات الذهاب والاياب وثمن الاسنان. بدت له هذه المشكلات كأنها الافاعي تتسلل الى حلمه لتنهشه ، وتودي به .

عند العصر تماما ، وقبل ان تغيب الشمس ، من ذلك اليوم ، كانت المرأة التي ما وافقته يوما على رأي من آرائه تصرخ ، وتهدد بهجر البيت ، والذهاب الى اهلها :

ـ لن اتركك لتبيع البقرة ، هل فقدت عقلك ؟.. أتحرم الافواه الثمانية اكراما لواحد ؟..

ـ سأشتغل مضاعفا .. وسأشتري لك بقرة اخرى .

ـ سأترك البيت لك في الساعة التي تتركه فيها البقرة .

شحنت المرأة اعصابه غيظا ، اذ تجمع الجيران على صوت الشجار ، والجدال .

قال رجل :

ـ لن تستطيع ان تحصل على بقرة اخرى اذا فرطت في هذه التي بين يديك ..

وقالت امرأة :

ـ ستحرم الاطفال من قوتهم ..

وتقدم الشيخ حمدان الذي كانت تملأ وجهه لحية طويلة ،

تشب فيها البياض ، كما تنشب النار في قطعة سوداء من المخمل ، وفتح فمه امام عينيه حتى بدا سقف حلقه الاحمر :

ـ انظر هل ترى سنا واحدة لاجل البركة .. ومع ذلك لم يخطر لي ان ابيع دجاجة واحدة ..

وعقب رجل آخر يرتجف من الكبر :

ـ من انت حتى تكون غير الاخرين ، لقد رأيت أباك وجدك في أيامه الاخيرة ، وقد ذهبا الى القبر بدون اسنان كما جاءا الى هذه الدنيا أول مرة ..

بدت امرأته منتصرة ، ظهر ذلك في بريق عينيها الظافرتين ، كما لو انها استطاعت ان تدمر خطرا كان سيودي بها . وهذا ما جعله يزداد عنادا ، فأراد ان يحسم الجدال مع الذين اخذوا جانب امرأته :

ـ أنا حر في امساك بقرتي او بيعها ... وأنا أدرى بمصلحتي..

قال الشيخ حمدان مرة ثانية :

ـ يا رجل لا تخرب بيتك .. واطرد أفكار الشيطان اللعين ..

قال لهم :

ـ اقرضوني .. ولن ابيع شيئا .

ساد وجوم قصير ، خرقه بعد قليل صوت رفيع لامرأة :

ـ أنت تعرف انهم لا يملكون .. ولم يستطع الجابي ان يأخذ منهم الرسوم .. بل تريد ان تقطع حجتهم .

ـ أنا أقرضك المال ..

جاءت هذه العبارة من خلف الرجال كأنها آتية من واد سحيق ، ولكنها كانت كصوت المنجد المستغاث يستجيب لصوت المستغيث المشرف على الهلاك . انشقت حزمة الرجال ليظهر وراءها الوكيل « دياب » بقامته المديدة ، وحذائه الملمع الطويل الذي يبلغ الركبة .

ـ ألا تصدق .. ما لك كشجرة السنديان لا تتحرك .. قلت لك : سأقرضك المال .. هلم الي نذهب ..

قبض عليه الوكيل من معصمه ، وشقا الجماعة الواقفة ، المذهلة ، وسلكا الطريق الى بيت « الآغا » الكبير في طرف القرية .

* * *

قطع عليه حبل افكاره خشخشة عيدان الذرة ، فهناك قادم ما ، فالتصق بالارض ، ولم يستطع ان يميز الصوت جيدا فقد طغت ضربات قلبه على اذنيه فلم يستطع سماعا ، ولكنه هدأ من خوفه عندما أدرك ضآلة الصوت ، فقدر انه لحيوان ما ، ثعلب مثلا ، يجتاز الحقل ، فعاد من جديد الى الاستلقاء ، والنظر من بين عيدان الذرة الى زرقة السماء ، وكان ثمة كركي يطير وهو يسجع بصوته المعروف، يتبعه سرب كانت عيدان الذرة تمنعه من رؤيته كاملا ..

ـ يبدو انهم لن يأتوا ..

ـ يا لها من حية خبيثة منعتني من بيع البقرة .

وتذكر كيف طلب من البائع المتجول ان يعطيه اسنانه الاصطناعية ليجربها فسخر منه قائلا :

ـ ما العمل اذا ما بلعتها .. فكيف نخرجها من جوفك ؟

وأخذ يتمنى الاماني :

ـ لو انها تنبت مرتين .. المرة الثانية بعد الاربعين ..

ـ لو كنت شابا لاستطعت أن أفي بوعدي « للآغا » ولما كنت هربت من العمل ، كنت أدخل وحدي اكثر من مئة كيس قمح الى « المخزن » دون ان اثني ظهري .. تلك ايام الشباب .. واما الان..

وتمطق كما لو كان في فمه شيء .. وجذب انتباهه نشاط الطيور النهرية على الشاطىء في صيد السمك .. وتفكر لو لم يكن مختبئا لاستطاع ان يشاركها في الصيد ، ويستمتع بمرأى المياه الممتدة على مدى النظر ، والسفن ذاهبة آيبة بين الضفتين ..

ـ ولكنه سيأتي ان عاجلا أو آجلا .. ذلك « الشيطان » ... ولكن لماذا كل هذا التأخر .. ربما كلموه في شأني .. بل ربما كلموا « الآغا » فلا يزال من اهل الخير عدد كبير ..

نهض واقفا ، ثم أخذ يسير بمحاذاة الشاطىء ، فأصدا القرية ، وما ان خطا خطوات حتى رأى الجماعة التي طال انتظاره لها تبرز فجأة من القرية :

ـ انه الوكيل ..

رمى نفسه بسرعة القذيفة في حقل الذرة ، وجعل يزحف مبتعدا بكل ما أوتي من قوة ، والتصق بالارض ، مبهور الانفاس ، ولم تمض لحظات حتى أخذت أعواد الذرة تتقصف :

ـ انهم قادمون .. اجل .. قادمون ..

وأنصت :

ـ انه هناك ..

ـ لقد رأيته يسير بمحاذاة الشاطىء ، ثم ركض الى الحقل ..

كانت الاصوات تصل الى اذنيه ، وسمع صوت الوكيل :

ـ سنترك الكلب « جراح » فهو أسرع منا جميعا في الاهتداء الى مكانه ..

ثم رفع الوكيل صوته :

ـ اخرج يا سليم .. لقد عفونا عنك هذه المرة ..

فقال في سره :

ـ لن اخرج .. أيها الخنزير .

وشرع يزحف بكل ما أوتي من قوة الى اقصى الطرف الغربي من الحقل ، ولكنه لم يكد يبلغ طرف الحقل ، حتى داهمه الكلب .. على بعد خطوات منه ، يلهث وينبح ... فجمع قوته وانحدر الى النهر يتبعه الكلب .. وسرعان ما احتواه النهر ..

ـ لقد خرج من الحقل الى النهر .. هنا يا رجال .. أسرعوا..

غطس في الماء ، وترك نفسه للمياه الباردة تأخذه بعيدا ، ولكنه شعر بالاختناق ، فرفع رأسه فوق الماء .. ثم عاود الغطس ..

ـ هو ذاك في النهر ..

أطلق الوكيل عدة طلقات من بندقية ، أزت الرصاصات حول رأسه ..

ـ اخرج يا سليم ..

ولكنه استمر يقاوم التيار الى الضفة الاخرى ..

ـ اسرعوا .. خلفه ..

فقذف عدة رجال عراة ، سمر الاجسام ، أنفسهم في المياه ، وسبحوا بسرعة وخفة باتجاه سليم . وعندما خرج السابحون من الماء ، كانوا قد أحاطوا بسليم ، فقد كان خائرا ، مبتل الثياب .. يعب الهواء أنفاسا متلاحقة .. فأبعد الرجال ايديهم عنه ، فوقع على طين الشاطىء فانحنى عليه الوكيل بسرعة ، ودس يده في فمه :

ـ اين الاسنان .. أين الاسنان ايها اللعين ؟..

فتح سليم فمه بصعوبة :

ـ لقد سقطت في النهر ..

ـ ايها الكذاب اللعين .. ستخرجها ولو كانت في البحر ..

وعندما اقتيد الى القرية ، كان يشعر بالمهانة والذل ، ولكنه مع ذلك كان يشعر بالرضا لما صنع . وضحك في سره عندما تذكر يدي الوكيل الخائبتين وهما ترتدان عن فمه بدون الاسنان . وفكر :

مكتبة عبد القيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا

احدث المطبوعات العربية ، وكذلك مجلة الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب .

ـ لقد جعلني الشيطـــان لعبة .. يأخذ مني الاسنان كلمـــا غضب مني ..

جاءه صوت الوكيل :

ـ أتريد الاسنان مجانا أيها الكلب ..

ـ لقد اشتغلت كثيرا ..

ـ اشتغلت كثيرا .. سوف نرى عندما نصل الى القرية ..

وفجأة توقف الوكيل عن الكلام والسير ، فوقف السائـــرون لوقوفـــه :

ـ تقول انك اشتغلت كثيرا .. حسنا .. وهل كنت هناك عندما دفعت للطبيب الثمـــن .. بينما خرجت كأنك الطاووس في هـــذه الاسنان التي جعلت منك بشرا ..

وأخذ الوكيل يقسم الايمان المغلظة بأنه لن يرد عليه الاسنـــان مرة أخرى ..

ـ لن اتركك الا اذا أرجعت الاسنان .. ولن تراها بعد اليوم .. لقد كنت تهرب من العمل .. وكنت أرد عليك الاسنان كلما عـــدت اليه ، وكنت أشفق عليك .. ولكنني سئمت من ذلك ..

واخذ ينظر الى سليم من طرف خفي ليرى مبلغ تأثير كلامـــه . بينما كان رأس سليم يتثاقل . كان بحاجة الى النوم قبل كل شيء.. كانت رجلاه تتحركان كأنهما ليستا له ، وكانتا تذهبان به نحو القريـــة التي اخذت تبدو له كأنها قرية اخرى ، لم تطأها قدماه من قبـــل .. بل بدا له الامر كأنه لعبة « الجنود » و « اللصوص » التي كـــان يلعبها صغيرا ، فكأن اللعبة ستنتهي بمجرد ان يصلوا الى القريـــة ، او ان الامر كله لا يعدو مناما يرى فيه النائم احلاما منكرة لا تؤلمـــه في واقع الامر . سمع من القرية التي أضحت قريبة صهيل حصان.. وخوار بقرة .. بينما كانت الشمس فوقه لا تزال ترسل شواظهـــا على الارض .. وغيوم بيض كسلى تسبح تحت زرقة السمـــاء .. وكانت وحدها هي التي تشعر بالامن ..

ـ سأحبسك في هذا الاسطبل مع الخيول .. وسأخبر « الآغا » .. وأنت تعلم بأنه لن يعفيـــك من دينه .. ولكن استمع الـــي .. سأعرض عليك أمرا ..

اقترب الوكيل من باب الاسطبل الذي كان نصف مواربا :

ـ سيأخذ منك الـــدين على كل حال ثم يطردك من القريـــة .. ولكن اخرج الاسنان ـ واقسم لك ـ بأنني سأساعدك جهد طاقتي ..

فكر سليم بالعرض قليلا ، كانت الاسنان تنام آمنة في مكانهـــا تحت ساق شجرة الذرة التي لف عليها خرقة ..

ـ قلت لك .. انها سقطت في النهر ..

استشاط الوكيل غيظا

ـ أيها الاعمى .. ألن تراك تستعملها بعد ذلك .. أتظن انـــك تستفيد منها بعد الان ..

ـ سقطت في النهر عندما كنتم تطاردونني .. صدقني يا بني .. لقد وقعت مني ..

قال الجملة الاخيرة وقد اكسبها نغمة تذلل واستعطاف ..

ـ الاحسان الى الكلاب أمثالك اساءة ..

وفرقع الوكيل ذنب السوط الذي في يده في الهواء .. ثم اخذ السوط ينتحب على كل مكان من الجسم المنهك المكدود ..

خرج صوت من حلق سليم الجاف كعويل رياح خريفية :

ـ انها في النهر ..

كان ملقى على الارض .. وكان جسمه يتخدر تدريجيا .. ولـم تستطع لسعات السوط ان تفقده رغبته في النوم .. ثم اخـــذت اذناه تسمعان نشيشا بعيدا .. كأنه خرير النهر في جريانه الرتيب الكسول ، الذي يوحي بنومة طويلة فوق طوف خشبي ، يمضي مـــع النهر الى ما لا نهاية ..

حلب — محمد حمويه

دار الآداب تقدم :

محاورات في السياسة

بقلم جان بول سارتر، دافيد روسيه، جيرار روزنتال

ترجمة جـورج طرابيشي

مناقشات هامه تحتاج اليها الطليعـــة العربية في بحثها عن التخطيط السياسي والاقتصادي والاجتماعي الواجب اتباعه ، وفي محاولة تكوين الاحزاب التقدمية والتجمعات الثورية .

صدر حديثا — الثمن ليرتان لبنانيتان

* * *

مغامرة الإنسان

بقلم سيمون دو بوفوار

ترجمة جورج طرابيشي

الكتاب الاول الـــذي كشف عـــن عبقرية الكاتبة الوجودية العالميه . وفيه دراسة عميقة عن اوضـــاع الانسان في مغامرة الحياة .

صدر حديثا — ١٥٠ قرشا لبنانيا